الفصل الثاني

خرافات وأساطير كهنة الإلحاد الجديد

مقدمة

يقوم الإلحاد الجديد، والرؤية المادية للكون على دوغمائية أكثر من أشد الديانات إغراقًا في الوثنية.

ويتظاهر الإلحاد الجديد أن ما يتبناه هو مجرد فرضيات وأطروحات لم تصل لمرحلة الدوغما، لكنه في واقع الأمر دوغمائي متصلب، وفرضوي - نسبةً إلى فرضية- متشنج.

ويستند الإلحاد الجديد على مبدأ: أعطني مُعجزة واحدة مجانًا - الانفجار الكبير، خلق الحياة، التشفير داخل الجينوم - وسأشرح أنا البقية.

إنها أضيق حدود السذاجة إن استطعت ابتلاعها ابتلعت بعد ذلك أي شيء.

فعندما يقرر علماء الفيزياء أن المادة السوداء موجودة ليس لحِفظ توازن الكون كما يتصور الكثيرون ولكن لحفظ توازن المعادلة الرياضية، ووصل حجمها مع الطاقة السوداء إلى 96 % من مادة الكون في حين أنه لا يوجد دليل علمي واحد على هذا القياس أو هذا الحجم ولا حتى على وجودها أصلًا إلى الآن، ومع ذلك نتنزل مع فرضية الفيزيائيين؛ لأن المسألة توازن معادلة رياضية، ولا علاقة للمسألة بالإيمان أو الكفر، لكن هنا يتشنج الملحد ويريد أن يجعل رؤيتنا للكون مبنية على المعادلة الرياضية، وهذا ربما جوهر الإشكال الذي من أجله تم وضع هذا الكتاب.

فكما قلنا في الفصل السابق فإنه ليس كل ما تقرره الرياضيات تجريديًّا يقرره الواقع المادي أنطولوجيًّا ماديًّا.

الملحد يريد أن يجعل من الفرضية الرياضية واقعًا ماديًّا، ومن الشك يقينًا، ومن البديهية العقلية سفسطة، وقد مكر الله عَزَّوَجَلَّ بهؤلاء فظهرت فرضيات بالملايين وأطروحات تقبل الشيء ونقيضه وعج العلم المادي بكومة من الفرضيات لا قِبل حتى للملحد بها، فجاءت النتائج على نقيض القصد.

وغاصت أقدام الملحد في أوحال ما كان له أن يلِجها لولا تعنته المقصود وغايته الخبيثة.

وسنطرح في هذا الفصل-إن شاء الله- شيء من الخرافات والأساطير التي يروجها كهنة الإلحاد الجديد.

الذاكرة ليست آثارا مادية في الدماغ كما يتصور العامة، ويريد أن يلفق الملحد

قام عالم النفس الشهير وأخصائي السلوك والذاكرة كارل لاشلي Karl Lashley بتدريب الفئران والقرود على العديد من الخدع، وعندما يتعلمون الخدعة يقوم بقطع جزء من الدماغ لمعرفة في أي جُزء تُخزن الذاكرة، وقد تفاجأ عندما رأى أن باستطاعته قطع أجزاء كبيرة من الدماغ، لا يهم أي جزء أعلى أسفل داخل خارج سطحي عميق أمامي خلفي علوي سفلي، النتيجة واحدة دائمًا وهي عدم تلف الذاكرة أو ضياعها، فالذاكرة ليست في النهايات العصبية المُعدلة، ولا في فسفرة البروتين ولا الطرق الجزيئية الأخرى، ببساطة الذاكرة ربما لا تكون في الدماغ أصلاً[1].

لكن المشكلة أننا نتعامل مع دوغما جديدة بإسم العلم المادي يتزعمها كهنة الإلحاد الجديد، فلابد أن تكون الذاكرة والعقل في الدماغ، ولابد أن تكون المشكلة قصور في البحث فقط وليس خطأ في الدوغما.

لكن ما المانع أن يكون دماغنا مثل جهاز التلفاز أي مجرد مستقبِل للمعلومة ومُعالِج لها، وحين تُقطع الأسلاك يتوقف و يُفقد الإرسال، فالأصوات الصادرة من التلفاز ليست صادرة عنه أو مُخزنةً فيه، بل هو مجرد مستقبل ومعالج للمعلومة، و إذا تلفت الدائرة الكهربية فيه أو تلفت الأسلاك يتوقف عن الإرسال والاستقبال. وبالضبط هذا ما يحدث في حال تلف أسلاك الدماغ نتيجة صدمة أو تلف الدائرة الكهربية نتيجة زهايمر فيتوقف عن الإرسال والاستقبال.

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Karl_Lashley.

ونفس الأمر يقاس على العقل، وسنوضح هذه القضية بشيء من التفصيل

الإبصار كنقطة بداية هو عملية كهروكيمائية في المقام الأول؛ حيث تنعكس الصورة على الشبكية، ثم تظهر نبضات عصبية في مراكز مخية معينة تحدد الصورة ومكانها؛ لكن هذه عملية كيميائية لا علاقة لها بإدارك وجود الصورة أو استيعاب وجودها، فالوعي شيء والحسابات الكيميائية شيء آخر، ولذا يقال: إن الوعي والعقل يوجد داخلهما كل ما تدركه فكل السماء توجد داخل عقلك، لكن هذا ما ترفضه دوغما كهنة الإلحاد بشدة، فلابد أن يكون العقل والذاكرة والوعي وكل شيء داخل الدماغ، ولابد أن تكون الحسابات الكيميائية هي المعادلة الأخيرة في النهاية، ولابد أن تكون الرؤية المادية الاختزالية هي الحصان الأسود الوحيد في جميع المبارزات.

إن مليارات الدولارات التي تُنفق سنويًّا على مراكز البحث العلمي في أبحاث الدماغ تقوم على فرض دوغمائي مسبق، وهو أن الذاكرة والعقل والوعي وكل الأنشطة الإدراكية تقبع داخل الدماغ ولذا ستظل المليارات تُنفق دون جدوى.

يقول الدكتور هوجو زوكاريلي Hugo Zucarelli: إن هذه الرؤية الكهنوتية للعقل وأدوات الإدراك أدت إلى قصور شديد في الكثير من المباحث العلمية الحقيقية، فالإنسان مثلًا يستطيع تحديد مصدر الصوت دون تحريك رأسه حتى ولو كانت أذن واحدة تعمل، وهذا مستحيل ماديًّا؛ لأنه لا توجد خاصية داخل أذن أو دماغ الإنسان لمثل هذا الأمر، لكن الإنسان يلتفت فورًا نحو مصدر الصوت، ومع ذلك نحن مُطالَبون بتفسير الأمر من داخل الدماغ مع أن البحث من المعلوم مُسبقًا أنه سيكون بلا جدوى[1].

ويرى عالِم الأعصاب الدماغية الشهير كارل بريبرام Karl Pribram أن الوعي والإدراك الإنساني لا علاقة لهما بالدماغ أو الوصلات العصبية والذي يرهق نفسه في هذا النفق الضيق فلن يخرج بشيء[2].

ومع ذلك كهنة الإلحاد الجديد سيُصرون على الدوغما مُعطلين بذلك العلم نفسه، وفي هذا هم يدفعون الشباب للعزوف عن العلم المادي؛ لأنه أصبح قوالب جامدة وعاجز عن

(1) http://en.wikipedia.org/wiki/Holophonics.

(2) http://en.wikipedia.org/wiki/Karl_H._Pribram.

تفسير الكثير من الأمور التي تشغلهم مثل التخاطر عن بُعد Telepathy والجلاء البصري Clair Voiance، وغيرها من الأمور التي يحكم العلم المادي عليها مُسبقًا بأنها خارج دائرة العلم أو من قبيل الخرافة مع جديتها و إثارتها وتتابع تكرارها مما يُعطيها نمطًا إحصائيًّا قابلًا للرصد.

المشكلة أنه حتى الذين يقبلون بالبحث خارج إطار ما حدده لهم كهنة الإلحاد الجديد، يتعرضون في النهاية لرفض أبحاثهم، أو تهديد مستقبلهم الوظيفي، أو تقليل المبالغ المالية المرصودة لأبحاثهم، وتبتعد أسماؤهم عن عناوين المجلات المرموقة ويُنظر إليهم كمروجي علم زائف pseudo-science وهذا ما يجعل ممارسات كهنة الإلحاد الجديد أشبه ما تكون بقوانين كنسية تشلح كل من يتعرض لها بالنقد.

أصل الوعي وخندق المادية!

أدق الكائنات الحية على الإطلاق يقودها الغرض والهدف والغاية، وتتمتع بالوعي وتحليل المعلومات ثم إعطاء رد فعل بِناءًا على تلك المعلومات، فمثلًا الأميبا وحيدة الخلية لو جاء بجوارها غِذاء متحرك فإنها تلف أذرعها حوله بحذر حتى لا يهرب، في حين لو كان الغذاء ثابتًا لا يتحرك - حُبيبة نشا - فإنها تلتصق به دون احتراس.

والأميبا كائن وحيد الخلية بلا مخ ولا عين ولا أعصاب ولا حواس.

و البويضة بعد تخصيبها تُعبِّر عن استقلالها البيولوجي و يكون لها وعي و إحساس بحقيقة أنه يمكنها التفاعل مع بيئتها، وتبدأ في الإنقسام الذاتي لخلايا يفوق في عددها نجوم مجرة درب التبانة، ولديها القدرة على تلقي المعلومة ومعالجتها والتفاعل باستقلال مع المعلومة.

في حين أنه لا يمكن أن يبلغ الكمبيوتر مهما اشتد تعقيده أبسط درجات الوعي في كائن وحيد الخلية كالأميبا، ومع ذلك عملية تصنيع الكمبيوتر عملية واعية وذكية للغاية، أما الخلية الأولية كالأميبا التي تفوق في كل عضية من عضياتها أعلى الكمبيوترات تعقيدًا بل ربما لا مجال للمقارنة؛ لأن نسبة وعي أذكي الكمبيوترات على الإطلاق تساوي صفر، I.Q.=ZERO، ومع ذلك المطلوب أن نُصدق أن العشوائية أنشأت الأميبا والإنسان، والذكاء الإنساني لم يستطع أن يُنشئ أبسط صور الوعي، إنها أضيق حدود السذاجة إن استطعت ابتلاعها ابتلعت بعد ذلك أي شيء.

إنه السؤال المفصلي والجوهري بين الدين المنطقي والإلحاد العبثي.

فالإلحاد لا يطرح أجوبة بل يزيد المشكلة تعقيدًا، فلا مبرر مادي للقدرة على الإحساس بالمعلومة ومعالجتها، و إخراج رد فعل ذكي، كما عند أي كائن حي، ولا مبرر مادي للتكامل على كل المستويات - ذاتية التنظيم والتنسيق وذاتية الإنضباط -، لا مبرر مادي للإدراك والوعي والقيمة والهدف والغاية، بل لا مبرر مادي للحياة نفسها بوصفها كينونة مستقلة، لا يمكن لوصلات عصبية أن تُفرز القيمة والهدف والجمال والغاية والحِس الأخلاقي والإمتنان للوجود والحياة، والشعور بالسمو والكيان، والقيمة والحرية، إن هناك وعي أعمق يؤثر على سلوك هذه الأسلاك العصبية.

ليست هناك آلية مادية لتشرح المعنى والوعي في حياتنا، إذا قال لك شخص تحبه أنه يحبك ساعتها سيُفرز جسدك الإندورفين والدوبامين، في حين لو قررت الانفصال عنه وقال لك: إنه يحبك. ساعتها سيفرز جسدك الكورتيزول والأدرينالين، المعني والوعي هو الذي يقرر السلوك المادي وليس العكس.

ليست هناك آلية مادية لتشرح كيف تصطدم فوتونات الضوء بشبكية عينك وتصنع صورة ثلاثية الأبعاد للواقع من حولك داخل خلايا مُخك المظلمة؟ إنها عملية لا يوجد للعلم إجابة عنها.. إنها الوعي.. إنها الحياة نفسها.

المادية لن تجيب عن معنى وجودنا، فالوعي لا يفهمه إلا الوعي، لهذا نحتاج إلى الدين، بالمنطق العلمي والعقلي نفسه الذي احتجنا به إلى المادية.

خرافة مادية العقل

لفظة العقل في صيغته الإسمية لم ترد في القرآن الكريم مُطلقًا، لكن وردت مشتقاته في صيغته الفعلية، مثل: عقلوا وتعقلون و يعقل ونعقل قرابة خمسين مرة، فالقرآن يهتم بالأفعال ونتائجها أكثر من اهتمامه بالتفاصيل النظرية، أيضًا العقل الذي يتحدث عنه القرآن الكريم ليس عقلًا مُجردًا، أو جوهرًا قائمًا بذاته - فقد ورد بصيغته الفعلية فقط- و إنما هو مَلَكة زودنا الله بها لنستعملها في حدودٍ رسمها لنا.

وبالفعل لا يوجد في علم وظائف الأعضاء جوهر مادي يُسمى عقلًا، أو سلوك كهروكيميائي يُنتج عقل، أو وصلات عصبية تنتهي بإفراز عقل، بل إن معرفتنا المادية العلمية للعقل لم تتقدم خطوة واحدة للأمام منذ العصر الحجري القديم، ومع أن الرئيس بوش أعلن أن العقد الأخير من القرن العشرين سيكون عِقد أبحاث الدماغ، وبعد عقد كامل من الأبحاث المُكثفة خرج ستيفن مورس Stephen Morse، أُستاذ علم النفس في جامعة بنسلفانيا مخاطبًا المؤتمر العالمي لعلوم المخ والأعصاب المنعقد في عام 2005 قائلًا أن «الأبحاث لم تتقدم خطوة واحدة للأمام وليست لدينا حتى مفاتيح الفهم للوعي والعقل».

ولذا يعترف روبرت كون Robert L.Kuhn الحاصل على الدكتوراة في بحوث المخ، أن هناك جوهر غير مادي يتحد بالمخ ليفرز العقل، ولا مفر من اعتباره الروح التي يتحدث عنها المتدينون.

ويعترف ليونارد ملدينوف Leonard Mlodinow الفيزيائي الشهير والمشارك co-author في كتاب التصميم العظيم مع ستيفن هاوكنج أن الوعي والعقل غير ماديين[1].

والعقل هو مناط التكليف ويوجِب على صاحبه النظر والاستدلال والقيام بما كُلف به، ويمثل العقل ميزة فريدة وضعها الله عَزَّوَجَلَّ في الإنسان؛ به يعرف ثم يعمل، ومن هنا كانت مسئولياته، ولولا العقل ما صحَّت مُحاكمة ولا وُضع دستور ولا عُرف حقٌّ من باطل، ومِن هنا نحن لسنا مُخيرين في رفض التكليف الإلهي، طالما تمتعنا بالعقل[2].

تبادل أيونات الصوديوم والبوتاسيوم

ينتابني شعور بالغثيان كلما طلب مني مُلحد أن أُسلِّم بأن تطلعنا إلى الحق والخير والعدل والقيمة، نتيجة مباشرة لتحركات وتبادلات أيونات صوديوم وبوتاسيوم على جدران خلية عصبية في أمخاخنا، إن هذه التبادلات الأيونية يمكن أن نُجريها على ورقة ترشيح داخل أي معمل فهل ستدرك ورقة الترشيح معنى الحق والعدل والقيمة؟

إن الإلحاد يطلب منَّا بانتظام الانتحار المتواصل لعقولنا.

---

(1) https://www.youtube.com/watch?v=WGvzheu1JQA.

(2) بعض الفقرات من كتاب ثم صار المخ عقلاً، د.عمرو شريف.

عندما يقوم أحد الكلاب بعضةٍ لابن جارك؛ على المستوى المادي يُدرك الكلب أبعاد العضة بما أودع الله فيه من حياة، لكن الكلب لا يدرك معنى أن يطالبك والد الفتى بتعويض مناسب، وربما يَحضر الكلب جميع مراحل التحقيق، ويرى الغرامة المالية تُدفع، ولكنه لا يدرك شيئًا من مغزى كل هذه الحركات، لأنه لا يعرف المعنى ولا القيمة ولا الحق المجرد، وأرقى الكائنات الحية على الإطلاق - القردة العليا- لا يوجد عندها ولو تصور بسيط للمعنى والقيمة، فالترميز والإدراك cognition and symbolism اللذين دخل بهما الإنسان إلى هذا العالم، واللذين من خلالهما يمتلك الإنسان معاني مجردة لا علاقة لها بهذا العلم المادي، فيعرف الحق ويعرف العدل، ويعرف أنه يجب السعي نحوهما ولو على حساب المادة ولو على حساب الرؤية الداروينية، الإنسان في هذه الحال يعلن تمرده على الرؤية الإلحادية ويعلن أنها رؤية فاشلة ولا تصلح له ولا مبرر لوجودها وتعاطيها مع أهم ما يميزه.

ولذا فقد دخل الإنسان إلى هذا العالم بمعرفة الأسماء المادية، والأسماء المجردة ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: 31]، وهنا فقط تميَّز الإنسان ودخل التاريخ وبدأت اللحظة التي صنعت عصرًا جديدًا، فالحق والخير والعدل والقيمة أشياء لا تفرزها المادة ولا تصل للوعي من خلال تبادل أيونات صوديوم وبوتاسيوم على جدران خلية عصبية، ولن تفرز هذه التبادلات الوعي أصلاً، إن جوهر وجودنا ومعنى وجودنا لا يتأتى إلا بالتمرد على تلك الرؤية الإلحادية.

إن الممر الصوتي الذي يتكون من الحنجرة والأحبال الصوتية ثم البلعوم فالفم، هذا الممر الصوتي ينتج صوتًا نعم لكن لا يعرف شيئًا عما ينتجه، وليست لغتنا هي تقطيع لصرخات القردة العليا كما يحاول أن يقنعنا كهنة الإلحاد باستمرار، أو أن حركات النطق هي تطور لابتسامة الرئيسيات، إن لغتنا ليست منعكسات استثارية reflexes كما عند القردة العليا، بل هي مخطط عقلي تجريدي يستخدم الحنجرة والممرات الصوتية والمراكز المخية العصبية لإفراز مكنون الذات الإنسانية، ولذا فعبارة واحدة يُمكن أن تُنشيء حضارة، ورسالة واحدة تؤسس لدين، وكلمة واحدة تُقيم حرب عالمية، إن معنى الكلمات شيء خارج عن تركيب الكون المادي بأسره، إن للإنسان معنى مفارق لهذا الوجود منه يستمد معناه وقيمته ومن خلاله يعرف الحق والخير والعدل، وبه ينطق بالحق والخير والعدل، ويعرف معاني هذه الكلمات ﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونس: 82].

الموسيقى تزيد نسبة الذكاء خرافة علمية[1]

وضعت مجلة Nature المرموقة مقالا في عام 1993 تُثبت فيه أن الذكاء يزيد بفعل الموسيقى.. وكتب الطبيب [دون كامبل] عن تأثير [موتسارت]، وبدأت شركات الدعاية في ضخ آلاف الاسطوانات والألعاب وشرائط الكاسيت التي تمتلئ بموسيقى موتسارت، لتحفيز ذكاء الرُّضع والتلاميذ.

ووصلت الدعاية إلى الحد الذي تحدثت فيه بعض الصحف أن الجنين لو استمع للموسيقى سيخرج أكثر ذكاءًا مع أن تجربة واحدة لتأثير الموسيقى على الأجنة لم تحدث.

وكان من تأثير الدعاية الكاذبة أن خصَّصت ولاية جورجيا في عام 1998 مبلغ 105000 دولار حتى يحصل كل مولود جديد على إسطوانة موسيقية.

وقامت فلوريدا بإلزام كل الحضانات بتشغيل الموسيقى للرضع بصفة يومية، وكان هذا قانونًا إلزاميًا.

قانون رقم 660 الصادر عن مجلس الشيوخ بفلوريدا 21 مايو 1998

لكن الآن وبعد أن أُعيدت دراسات مجلة Nature مرات ومرات، يمكننا القول أن تأثير الموسيقى على الذكاء خرافة علمية.

فقد ثبت فيما بعد أن السبب في انتشار هذه المعلومة الخاطئة ليس مقال مجلة Nature وإنما الدعاية الضخمة.

وقد أظهرت أبحاث نانتايس وشيلينبيرج 1999 أن الاستماع إلى الموسيقى التفاؤلية لموتسارت، يعادل في تأثيره الاستماع إلى فقرة من قصة مخيفة للكاتب ستيفن كينج المتخصص في قصص الرعب.

الخلاصة: كل ما تُقدمه الموسيقى هو إثارة وقتية لبعض وظائف المخ لا تلبث أن تختفي بعد ذهاب المؤثر[2].

---

(1) المصدر: أشهر 50 خرافة في علم النفس.. سكوت ليلينفيلد وستيفن جاي لين وجون روشيو وباري بايرستاين.. ترجمة محمد رمضان داوود وإيمان أحمد عزب.. كلمات للترجمة والنشر.. ص89-82.

(2) هذه الإثارة الوقتية للموسيقى أيضا تؤدي إلى نتائج سلبية على كثير من البشر وتؤدي إلى خلل ضربات=

خرافة الحتمية التربوية

هناك متدينون عديمو الثقافة، ومتوسطو الثقافة، ومرتفعو الثقافة.

هناك ملحدون عديمو الثقافة، ومتوسطو الثقافة، ومرتفعو الثقافة.

الإلحاد قضية إيمانية مجردة لا علاقة لها بالمستوى الثقافي أو التحصيل العلمي أو الأُفق الإدراكي المعرفي من قريب أو بعيد.

الإلحاد قضية دينية خالصة، وموقف فلسفي متكامل، ورؤية شمولية للكون والحياة.

هناك بلطجية ولصوص وخونة ومجرمون سوقة، يسبون الدين ليل نهار، لا يعرفون معروفًا ولا يُنكرون مُنكرًا، ولا يؤدون حق الله ولا حق الخلق، هؤلاء الأراذل لو تربوا في بيئة طاهرة نظيفة، وتلقوا تعليمًا عاليًا وفِكرًا راقيًا سيصبحون علماء ملحدين، ومفكرين علمانيين، وكهنة إلحاد خبثاء.

بعد دراسات نفسية مستفيضة تبيَّن أن التدريب لغوٌ فارغ، وأن أصل الإنسان الذاتي الداخلي هو المعيار الوحيد، وهو المُحرك الأوحد EGO effect -هذا المصطلح من نحتي.

Mischel, W. introduction to personality. New York

إن التدريب وإن قام بفرض السلوك الصحيح فهو في جوهره لا يُغير في النتيجة النهائية شيئًا، ولعل أكثر الأمور دهشة حين يتحول أعتى الطغاة أو المذنبين بين يوم وليلة إلى شهداء متواضعين ولم تسبق هذه التوبة عملية إصلاح أو إقناع، إنها حركة في أعماق الروح، إنه تحول ينبع من ذات الإنسان فلا توجد علاقة شرطية ولا حتى تفسير عقلي، فجوهر هذه الدراما هو الحرية والخَلق.

= القلب Arrhythmia وفي حالات كثيرة تؤدي إلى الوفاة نظرا لتأثيرها الضار على انتظام ضربات القلب... وقد سُجلت بالفعل العديد من الحالات التي كانت الموسيقى سببًا مباشرًا في توقف قلبها music causes sudden arrhythmic death syndrome.

http://audiologyjobs.co.uk/98/news/loud-bass-music-and-sudden-arrhythmic-death-syndrome/

فالخير والشر في باطن الإنسان ولا توجد قوانين يمكن بها إصلاح الإنسان، فكل ما تستطيعه القوانين أو التدريب أن تُغير السلوك ظاهريًّا، إن اليقظة الروحية والهداية تلقائيتان، إنهما نتاج حركة الروح.

فالتدريب لا تأثير له على الموقف الأخلاقي للإنسان، لا يوجد تدريب مادي لتصبح المرأة شريفة أو يصبح الرجل أمينًا فهذه صفات الروح، فالتنشئة الحقيقية هي تنشئة ذاتية وهي مناقضة للتدريب وفي هذا الحُجة الأولى والأقوى للروح.

إن أروع الروايات الأدبية تُرًّا هي تلك الروايات التي تتحدث عن شخصيات خاطئة ظاهريًّا بينما هم في أعماقهم طاهرين نبلاء، في مقابل شخصيات طاهرة ظاهريًّا بينما هي مفرغة من الأخلاق بمجرد أن تخلو بنفسها. هذا التقابل بين هذه الشخصيات هو أسمى ما يميز الروح الإنسانية و إذا لم يكن هناك روح فلن يكون لهذه الروايات معنًى.

إن القضية الوجودية الكُلية هي قضية سرائر، والمحاكمة الكبرى محاكمة يوم القيامة هي محاكمة السرائر ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: 9].

وأول مَن تُسعر بهم النار يوم القيامة هم أنقى الناس وأفضلهم عملًا في الظاهر، كما في الحديث الصحيح، فالإلحاد هو دين كل فاجر، ولا يوجد في جهنم أبرياء، ولا في حظيرة خنازير الإلحاد طاهر.

خرافة الهيومانية بديلًا عن الدين

هل يمكن أن تحل الهيومانية Humanism - الإنسانية - بديلًا عن الدين؟

هل يمكن أن يحيا الجنس البشري بلا دين؟

هل يمكن التأسيس للقيمة والمعرفة والغاية والأخلاق في غياب الإله؟

لقد عاش الجنس البشري آلاف السنين تحت تأثير الدين، واستطاع الدين أن يوفر جميع أوجه الحياة الأخلاقية والقانونية والعقائدية وحتى اللغة، ومن ثَم فمن حقنا أن نتساءل عما إذا كان من الممكن إنتاج جيل ملحد إلحادًا كاملاً؟ لكي تنجح هذه المحاولة لابد من التنشئة في عزلة تامة عن كل دين وعن كل فن وعن كل دراما للوجود الإنساني، و إلغاء كل ما يمكن

أن يَستحضر النشء أمامه من رؤيا لعالم آخر، وبالتالي إلغاء جميع الأعمال الفنية التي تُصور صراع الإنسان في العالم وتطلعه لعالم أفضل؛ لأن كل هذه الأمور ستؤدي إلى شعور الإنسان بالاغتراب في هذا العالم، وهو شعور ميتافيزيقي روحاني بحت.

في الواقع هذا أمر صعب في الوقت الراهن؛ لأن الملحدين يعيشون في ظلال الدين، ويمكننا أن نزعم أن كل أخلاق الملحد هي مجرد تأثر بالدين ومبادئه الأخلاقية الأساسية، بطريقة صامتة غير محسوسة ولكنها ثابتة، فقد تربى الملحد في ظلال الدين عشرات السنين وهو في نقده للدين يتأثر بأخلاق من ينتقدهم، - إن جوهر الإنسان في أخلاقياته وليس في طبيعته المادية هذه حقيقة ثابتة-.

إن أخلاق الملحد هي عطية الدين هكذا علينا أن نزعم إلى أن ينشأ مجتمع إلحادي كامل.

لكن بعيدًا عن زعمنا، سنحاول أن نتصور تصورًا إبستمولوجيًّا - معرفيًّا- مجرد صورة مبسطة للقيمة والأخلاق من منظور مادي إلحادي مُجرد بناءًا على رؤية الملحدين أنفسهم.

أثبت فلاديمير لينين - مؤسس الدولة البلشفية الملحدة- أن الأخلاق خدعة ميتافيزيقية، وقرَّر فريدريك إنجلز- أبو النظرية الماركسية - في كتابه "أصل العائلة والدولة والملكية الخاصة"؛ أن النظام الأُسري نظام برجوازي، وأن شيوع النساء وإلغاء منظومة الزواج هو الحل الأقرب لروح الإلحاد المادي.

لكن لماذا لا نكون أكثر تفاؤلًا وأكثر تنزلاً، ونفترض أنه تم التأسيس للمجتمع الإلحادي الكامل بناءًا على أخلاق مثالية! أخلاق كاملة كالتي نادى بها الدين، أخلاق أصلية واضحة وراسخة في الذهن البشري!

لكن في هذه اللحظة على دعاة الإلحاد أن يطلبوا من الناس مزيدًا من المثالية والتضحية، ربما أكثر مما طلب أي نبي من قومه بإسم الدين، فليس ثَمة إغراءات ماورائية، وليس ثمة تطلع أُخروي يبرر التضحية والإلتزام بالمُثُل العليا التي هي جوهر القضية الأخلاقية! وكما يقول المفكر الإنجليزي جون لوك: «إذا كان كُل أمل الإنسان قاصرًا على هذا العالم، وإذا كنا نستمتع بالحياة هنا في هذه الدنيا فحسب، فليس غريبًا ولا مجافيًا للمنطق أن نبحث عن السعادة ولو على حساب الآباء والأبناء».

إنها معضلة وأي معضلة؛

لكن سننتزل مرةً أُخرى ونتصور أنه تم التاسيس للمجتمع الإلحادي الكامل، ونتصور أن هؤلاء الملحدين قرروا التضحية وتبني نموذج أخلاقي، إمعانًا في تحدي مجتمع المؤمنين، وقرروا أن يتركوا الشر والظلم، وقرروا أن يلتزموا بالأخلاق المثالية، هنا ستظهر المعضلة التي بلا حل، فداخل العالم الإلحادي لا يوجد معنى مادي للشر أو الظلم، فالشر أو الظلم هو وضع الشيء في غير محله، ومحل الأحداث في عالم الإلحاد المادي، هو نفس المحل الذي تحدده القوانين الفيزيائية، وبما أنه لا توجد ذرة تخالف تلك القوانين، إذن كل حدث في الكون المادي قد وُضع في محله المادي، ولذلك المفترض ألا يوجد في المجتمع الإلحادي ولا في الكون المادي ظلم أو شر.

فالإنسان مُستَوعب تمامًا في الطبيعة، قوانين الطبيعة هي قوانينه، تسري عليه الحتمية المادية الفيزيائية بمنتهى الأداتية المعرفية، فلا يمكن الاستقلال برؤية متجاوزة أو مغايرة لما تفرضه المادة، وإلا لاعتبرنا أن للإنسان أصلًا آخر ومقدمة أُخرى وانهار الإلحاد.

أيضًا العقل مادة مُتلقية طبيعية لا تتجاوز هذا الإطار، والحالة النفسية الحاكمة في النموذج الإلحادي هي حالةً نفسيةً للمادة وليس للروح، وبالتالي لا يمكنُها أن تُخَطِّئ حالةً ماديةً أخرى، فحتى تناطحُ الذراتِ هو تصرفٌ لا خطأ فيه ما دام موافقًا للقوانين الفيزيائيةِ الصحيحة.

وطبقًا لهذه الرؤية الإلحادية المادية الحتمية فإنه في المرحلة التالية سيتنازل الإنسان عن مركزيته، فالإنسان من منظور مادي إلحادي ليس هو المركز بل المركز هو الطبيعة المادية وقوانينها وحتمياتها، وبالتالي سيحل محل مركزية الإنسان مركزية الطبيعة باعتبارها المُطلق الأول، وهذا يعني انهيار المشروع الهيوماني (مشروع الإيمان بالإنسان) وبذا يُصفَّى الإنسان على حد تعبير الدكتور عبد الوهاب المسيري لحساب الطبيعة، وسيتم استيعابه تمامًا ويسقط في هيمنة المادية الحتمية، ويصبح أي حديث عن الإنسان أو قيمه أو مركزيته هو حديث ملوث ميتافيزيقيًّا، ويتحول الإنسان إلى حيوان مادي مجرد ويعود للصراع الداروينى الذي دخل به التاريخ.

وفي هذا الإطار المادي التجريدي يصبح الحديث عن الهيومانية لغو فارغ، وتتحول الشعارات إلى سخافة لا معنى لها، فما معنى حماية المعاقين أو المرضى الوراثيين أو تقديم يد العون لهم؟

إن محاولة من هذا القبيل تأتي ضد الانتخاب الطبيعي والبقاء للأصلح، وإذا كانت الرؤية الداروينية هي الرؤية الصحيحة وكانت حتمياتها هي الأصل الثابت، فلن يستوعب الإنسان أصلًا فكرة حماية المعاق أو تقديم يد العون للضعفاء، بل إن تعقيم المعاقين - منعهم من الإنجاب- هو الحل الداروينى الأمثل والأوحد.

أيضًا في الإطار المادي الحتمي الإلحادي كيف تتم المناداة بمفهوم الإنسانية الهيومانية، في عالم يحكمه البقاء للأصلح؟ بل إن أيَّة محاولة لمعاندة هذا الإطار المادي هي محاولة فاشلة؛ لأنها تأتي ضد التطور وضد قوانين الحتمية المادية التي تسري على الوجود.

يقول الداروينى جيمس هِلْ James J. Hill «إن الثروات تُحدَّد تبعًا لقانون البقاء للأقوى»[1].

ويقول تايل Tille « من الخطأ الشديد مجرد محاولة منع الفقر أو الإفلاس أو مساعدة الضعفاء أو محدودي الإنتاج.. مجرد مساعدة هؤلاء خطأ جوهري في النظرية الدروينية؛ لأنه يتعارض أساسًا مع الإنتخاب الطبيعي natural selection وهو جوهر الداروينية»[2].

وطبقا لهربرت سبنسر Herbert Spencer فإن «فكرة وسائل الوقاية الصحية وتدخل الدولة في الحماية الصحية لمواطنيها وتلقيحهم تعارض أبسط بديهيات الانتخاب الطبيعي، وكذلك مساندة الضعفاء أو محاولة حماية المرضى والحرص على بقائهم».!![3].

هذه هي الصورة التي يتيحها الإلحاد المادي، إنها المعادلة المستحيلة.. يستحيل أن يتم التأسيس للأخلاق داخل المنظومة المادية، لا يوجد داخل العالم المادي الهيومانى ما يُفرح الإنسان أو يسليه، أو يؤسس لقيّمه أو يؤسس لمبادئه أو يؤسس لأخلاقياته، يستحيل أن يوجد داخل المنظومة المادية ما يجعل الإنسان إنسانًا.

فالأخلاق والقيمة تمثلان ثغرة في النظام الطبيعي، فالأخلاق ثغرة معرفية كبرى في النسق الكوني، ولذا لا يمكن إخضاعها لقوانين الطبيعة وحتميات ماركس التاريخية، أو حتميات

(1) Martin, James J. Hill pp 414-15.

(2) Williams, Raymond. 2000. Social Darwinism. In Herbert Spencer's Critical Assessment. John Offer..

(3) Social Status, p.414-415.

داروين العضوية أو حتميات دوركايم الإجتماعية، هذا الاختلاف بين الأخلاق والطبيعة يُعبِّر عن نفسه في الاختلاف بين المؤشِّر في العلوم الطبيعية والمؤشِّر في العلوم الإنسانية.

فالأخلاق تسير عكس الطبيعة أو بمعنى أدق لا علاقة لها بالطبيعة، فالأخلاق ثغرة في الزمان فهي نتاج خلق والله خلقها كاملة؛ لأن الله لا ينتج ولا يشيد وإنما يخلق، وهذا يؤكد أصالة ظهور الإنسان.

فالأخلاق عقليًّا غير مربحة بل ضارة بل هي أكبر عبء على صاحبها وقد تساءل ماندفيل Bernard mandeville أستاذ علم الأخلاق الإنجليزي ما أهمية الأخلاق لتقدم المجتمع والتطور الحضاري؟ وأجاب ببساطة: لا شيء بل لعلها تكون ضارة.

ولذا فالأخلاق لم تتم البرهنة عليها عقليًّا إلى الآن، والأخلاق والدين هما أقدم الأفكار الإنسانية ترًّا، وقد ظهرا سويًّا مع الإنسان كل هذا يؤكد أصالة الظهور الإنساني وغائية الأخلاق التي يحملها، إنها اللحظة التي صنعت عصرًا جديدًا.

إن الإنسان يتحرك في الحياة وهو يعلم يقينًا أنه ليس مُفصل على طراز داروين، ولذا يرفض باستمرار إلحاح العلم المتزايد على أن الجنس الأبيض أفضل من الأسود، أو أن إبادة المعاقين والضعفاء خيرٌ للجنس البشري، أو أن الإنسان حيوان مادي، وهذا يؤكد أن الإنسان لا يستطيع أن يرفض التكليف الإلهي بداخله، وأن الإلحاد لا يصلح لتحليل ظاهرة الوجود الإنساني!

وتأتي النزعة الهيومانية الإنسانية الجديدة كتوكيد عجيب على هذا الأمر، فهي تستقي مبادئ غير مادية وغير علمية، تؤسس بها لمفاهيم مستقلة عن الوجود المادي، وتؤكد بها أن الإلحاد يرفض أن يكون إلحادًا، وأن الملحد في قمة إلحاده يترفع عن المادية الحتمية، ولذا لنا أن نتساءل: إذا كان الله غير موجود كما تزعمون، فلماذا التمحك في ظلاله؟

لماذا محاولة التأسيس لفلسفة هيومانية ملوثة ميتافيزيقيًّا؟

إذا كان الإنسان ابن المادة ومن المادة وإلى المادة، فلماذا الحديث عن سموه أو قيمته أو مركزيته؟

إن الهيومانية هي توكيد متزايد على أن الإلحاد لا يصلح لتحليل ظاهرة الوجود الإنساني، وأن الإلحاد شيء والإنسان الروح والجسد شيء آخر تمامًا.

لقد حاول كهنة المادية الإلحادية الغربية بعيدًا عن هذه الرؤى الميتافيزيقية، تحليل ظاهرة الوجود الإنساني، فوجدوا أن الإنسان لا يعدوا كائن طفيلي لا يوجد ما يُميزه، ولذا فقد ظهرت دعوات تعميمية تُنادي بإلغاء التفرقة بين البشر والحيوانات والحشرات، بل والنبات، ومحاكمة كل من يتعرض للفيروسات أو دودة الأرض؛ لأنه بيولوجيًّا لا فرق بين الإنسان ودودة الأرض فكلاهما على نفس الدرجة من التطور النوعي.

يقول كريستوفر مانيز christopher manes: «لا يوجد مستند لرؤية البشر ككائن أرقي من غيره»[1].

وفي سويسرا ظهرت قوانين عدم إذلال النباتات[2].

ويقول بيتر سنجر الأُستاذ بجامعة برينستون princeton university: «حياة رضيع ليست أغلى داروينيًّا من حياة شبمانزي أو خنزير»[3].

و يقول الداروييني الأمريكي james lee :» يجب تقليل عدد البشر قدر الإمكان، يجب إيقاف الزواج وقتل الرُّضع» وقد اتخذ هذا الداروييني وسائل حقيقية لقتل البشر باعتبارهم طاعون، وحيوان طفيلي فاسد، وفي سبتمبر 2010 قُتل جيمس لي حين اتجه إلى موقع قناة ديسكفوري وأخذ ثلاث رهائن وكان معه بعض القنابل، إلا أن الشرطة لم تمهله وأردته قتيلاً، قبل أن يُنفذ مخططه الداروييني[4].

يقول فرانسيس فوكوياما في كتابه الأشهر نهـاية التاريخ: «حقوق الانسان لها مشكلة فلسفية عميقة إذ لابد أولًا أن نفهم الإنسان قبل أن نبحث في حقوقه، نفهم طبيعة الإنسان، فالعلوم الطبيعية الحديثة تشير إلى أنه ليس ثمة فارق بين الانسان والطبيعة، وعندما نوسع في المساواة التي تنكر وجود أي اختلافات بين البشر فيمكن أن يشمل ذلك إنكار وجود اختلافات

(1) christopher manes , the green rage.
There is no basis for seeing humans as more advanced or developed than any other species .
(2) http://planetsave.com/2008/10/18/switzerland-places-ban-on-the-humiliation-of-plants/.
(3) http://www.lifesitenews.com/news/princeton-professor-singer-and-i-repeat-i-would-kill-disabled-infants.
(4) http://abcnews.go.com/US/gunman-enters-discovery-channel-headquarters-employees-evacuated/story?id=11535128.

هامة بين الانسان والقردة العليا، وتنشأ عن ذلك أسئلة لا حصر لها، إذ كيف يكون قتل البشر غير مشروع، في حين قتل هذه الحيوانات ليس كذلك، وسنصل حتمًا في مرحلة ما إلى السؤال التالي: ولماذا لا تتمتع الطفيليات المعوية والفيروسات بحقوق مساوية لحقوق الإنسان؟

إن عدم اهتمام الناس بهذه المساواة يوضح أنهم لا يزالون يؤمنون بمفهوم ما عن تفوق قدر الانسان، وحتى حماة الطبيعة وحماة الحيوانات، هم فقط يدافعون عن الحيوانات لأنهم يحبون بقائها معنا، ومجرد إفنائها لا سبيل لتعويضه مع ضياع فوائد ربما تُكتشف منها مستقبلاً، فحتى حماة الحيوانات هم للإفادة منها وليس من أجلها وهذا عكس حقوق الحيوان، إن مفهوم التوسع في المساواة أدى إلى حيرتنا الراهنة، إننا لو كنا نؤمن حقًّا أن الإنسان مجرد كائن في سلسلة حيوانية يخضع لقوانين الطبيعة ليست له قيم متجاوزة، هنا كان لابد أن تتساوى الكائنات جميعًا في الحقوق، وسيتعرض ساعتها المفهوم المساواتي للبشر للهجوم من أعلى ومن أسفل، ولا يسمح لنا هذا المأزق الفكري الذي أوقعتنا فيه النسبية الحديثة بأن نرد على هذا الهجوم أو ذاك، وبالتالي لا يسمح لنا بالدفاع عن الحقوق المساواتية - فإما طبقية متفحشة أو مساواتية مستحيلة -»[1].

إنه تحليل مدهش وحقيقي للمأزق الهيوماني، فإن فرانسيس فوكوياما يرى أن المساواة مستحيلة داخل المجتمع المادي، حيث يتحول الإنسان داخل هذا النموذج إلى كائن قانع بسعادته غير قادر على الإحساس بالخجل عاجز عن الارتقاء فوق مستوى احتياجاته وبالتالي فإن الإنسان لم يعد إنسانًا[2].

أليس الإنسان الكامل في هذه الصيغة هو كائن فج جدير بالإحتقار- والكلام لفرانسيس فوكوياما- كائن عاطل عن الإجتهاد والطموح - وهنا تضيع ملحمة الوجود الإنساني ودراما الحياة الإنسانية.. لقد مات الإنسان في النموذج المادي[3].

بل إن فرانسيس فوكوياما يصف الملحد في هذه المرحلة بالكلب، يقول فوكوياما: إنه داخل ذلك العالم سيصبح الناس حيوانات من جديد كما كانوا قبل المعركة الدامية التي بدأ

(1) المصدر: فرانسيس فوكوياما.. نهاية التاريخ وخاتم البشر..ترجمة: حسين أحمد أمين.. الطبعة الأولى 1993 مركز الأهرام للترجمة والنشرص 259 والكلام له بالحرف إلا ما بين - -.

(2) المصدر السابق ص 17.

(3) المصدر السابق ص18 إلا ما بين --.

بها التاريخ، إن الكلب يقنع بالنوم في ضوء الشمس طوال اليوم شرط أن يُطعموه، وذلك لأنه راضٍ بما هو عليه ولن يقلقه أن غيره من الكلاب حالها أفضل من حاله، أو أن مستقبله ككلب قد جُمد أو أن كلابًا في بقعة نائية من العالم تصادف المذلة والهوان[1]

و يتنبأ فوكو ياما في صفحة 274 من كتابه أن حياة مجتمع مادي إلحادي هيومانى كامل هي حياة بلا فنون ولا أدب ولا دراما ولا كفاءة، وقليلون سيتصدرون للخدمة العامة وستكون الحِرف مبتذلة وغير متطورة، وفي مرحلة ما سيكون هذا المجتمع عاجزًا عن الدفاع عن نفسه في وجه الحضارات الأُخرى حيث الحضارات الأخرى أصحابها على استعداد لهجر الراحة والأمن ويخاطرون بحياتهم من أجل القيمة.

و إذا كانت الهيومانية تسعى للتأسيس لفلسفتها في إطار العلم بعيدًا عن الدين، فماذا لو أثبت العلم أن العِرق الأبيض أفضل بيولوجيًا من الأسود؟ وأنهم في مرتبة أعلى في سلم التطور، هل سيتم الفصل العنصري بين البيض والسود داخل المجتمع الإلحادي الهيومانى؟ أم ستتم معاندة العلم والبيولوجيا ومعاندة الإنتخاب الطبيعي و إقرار المساواة بين البيض والسود، وساعتها ستكون أكبر خيانة للتطور وأكبر ضربة للماديين؟

بالمناسبة: هناك آلاف الأبحاث التي أثبتت تفوق الجنس الأبيض على الجنس الأسود ماديًّا وبيولوجيًّا، منها قديمًا أبحاث عالِم الإنسانيات الشهير صموئيل مورتن Samuel Morton وأبحاث لويس أجاسي louis agassiz الذي كان يقول بأن البيض ليسوا سفَّاحين حين أبادوا الهنود الحمر، ولكنهم يتبعون قضية حتمية في تشكل الأعراق، فهذه هي حتمية العلم، وحديثا ظهر كتاب قوس الجرس bell curve أكثر الكتب مبيعًا في السبعينات، وهو الكتاب الذي يتحدث عن أنه لا فائدة من تعليم السود أو تحصينهم من الأمراض؛ لأنهم أضعف عقلًا وأفقر ذهنًا من البيض ولابد من إنفاق المال في أُمور أكثر فائدة.

ماذا لو أثبت العلم تفوق الرجل على المرأة ماديًّا؟ وأن الرجل في مرتبة أعلى بيولوجيًّا من المرأة، هل ستتم المساواة بين الجنسين داخل المجتمع الإلحادي، أم سيكون هذا مطلب غير علمي غير عقلاني عبثي ميتافيزيقي يقف في وجه التطور وحتميات الطبيعة؟

(1) المصدر السابق ص271.

بالمناسبة: المرأة طبقًا لأدبيات التطور لها تصنيف في السلسلة الحيوانية مستقل تمامًا عن تصنيف الرجل، فالمرأة تندرج تحت تصنيف Homo parietalis بينما الرجل تحت تصنيف Homo frontalis فدراسة حجم الجمجمة في القرن التاسع عشر أثبتت وجود فرق جوهري في حجم المخ لصالح الرجل بمقدار -12 19 % وكتب كارل بروكا brucca يقول أن مخ المرأة أضعف بكثير من مخ الرجل.

فحجم المخ الخاص بالمرأة يكاد يطابق ذلك الخاص بالغوريلا، والمرأة تأتي في المرحلة السفلى من مراحل تطور الإنسان[1].

ويرى داروين أن المرأة لا تصلح إلا لمهام المنزل، وإضفاء البهجة على البيت،- فالمرأة في البيت أفضل من الكلب-[2].

هذه هي الرؤية الإلحادية الهيومانية للإنسان بصورتها الحقيقية، فالإلحاد حرَّر أتباعه من أية أعباء أخلاقية، وإذا لم يتم تبني هذه الرؤية في المنظومة الهيومانية فهذا يعني انهيار الأساس الذي بُنيت عليه الهيومانية، وبالتالي استقاء عناصر غير مادية من خارج المنظومة الهيومانية، سيكون اعترافًا بعدم صلاحيتها كمنظومة فكرية مستقلة لتفسير المغزى الوجودي!

إن الأمر الذي لا يجب أن نغفله هنا؛ هو أن الحروب العالمية كانت دائمًا نتاج المجتمعات الأرستوقراطية الملحدة، والإلحاد هو الذي زوّد الإمبريالية الغربية بإطار نظري لإبادة الملايين بإسم العرقية المادية، والبيولوجية الداروينية، ولن تتجاوز الهيومانية هذه الرؤية مهما تظاهرت بخلاف ذلك، وعلى الهيومانية أن تتبنى بمنتهى الهدوء اليد الخفية عن آدم سميث، والمنفعة عن بنتام، ووسائل الإنتاج عند ماركس، والجنس عند فرويد، وإرادة القوة عند نيتشه، وقانون البقاء عند داروين، والطفرة الحيوية عند برجسون، والروح المطلقة عند هيجل، وإلا فالهيومانية ستُعتبر تمرد على المادية الحتمية[3].

هذا هو الإلحاد الهيومانى عند التطبيق، وهذا هو أصل معركته وشعارها ودثارها، وفي هذا

(1) Gould, The Mismeasure of Man, p.105.

(2) Charles Darwin, The Autobiography of Charles Darwin 180 1882, New York pp. 232-233.

(3) العلمانية الجزئية العلمانية الشاملة د. عبد الوهاب المسيري دار الشروق طبعة 2002 المجلد الأول ص240.

السبيل قامت حربان عالميتان أُبيد فيهما قرابة 120 مليون نسمة، وكانت حروب من الدموية بحيث أرجعت كلًّا من المنتصر والمهزوم ثلث قرن إلى الوراء، فالحربان العالميتان اللتان أبادتا حوالي 5 % من سكان العالم كانتا نزاع إلحادي- إلحادي، وقام الفلاسفة بوضع مبولة في وسط باريس بدلًا من تمثال الجندي المجهول كنايةً عن نهاية الحضارة.

وقد اعتبر الليبرالي الشهير - رئيس الولايات المتحدة السابق - جون كوينسي آدمز John Quincy Adams أن حرب البيض ضد الهنود الحمر هو قانون الطبيعة، ولهذا القانون تطبيقاته الواسعة جداً»[1].

فاستئصال طبقة كاملة من الناس، وتفريغ قارتين كاملتين من البشر- تفريغ الأمركتين من الهنود الحمر- ما كان ليحدث لولا الرؤية المادية للوجود الإنساني، وقد اعتبر الليبراليون الأوائل أن إبادة الهنود الحمر نوع من الدفاع الشرعي، ونتيجةً لذلك: تقلّص عدد الهنود الحمر من 10 مليون الى 200 الف نسمة خلال سنوات قليلة ولذا يقول سيمون بوليفار Simón Bolívar محرر أمريكا اللاتينية: «يبدو ان الولايات المتحدة تسعى لتعذيب وتقييد القارة باسم الحرية»[2].

وليست إبادة الملايين في أرخبيل الكولاج The Gulag Archipelago على يد الملحد لينين والملحد ستالين، إلا من خلال مبرّر إلحادي شيوعي، وليست إبادة 22% من سكان كمبوديا إلا بمبرر إلحادي على يد بول بوت pol pot، وليست إقامة الحرب العالمية الثانية كلها إلا بمبرر قومي مادي عِرقي ألماني على يد أدولف هتلر، وليست الثورة الثقافية في الصين التي راح ضحيتها 22 مليون نسمة إلا بمبرر إلحاد ماوي Mao zedong، فالحرب في الإلحاد غاية في ذاتها، والمكاسب المادية وتفريغ القارات من البشر، وتطهير الأعراق ليست كلها إلا إفرازات داروينية مادية، ورؤى عِرقية طبيعية، وهذه الرؤى هي التصور المستقبلي للهيومانية حال التطبيق!

يقول ريتشارد فيكارت Richard Weikart: «لقد نجحت الداروينية أو تأويلاتها الطبيعية، في قلب ميزان الأخلاق رأسًا على عقب، ووفرت الأساس العلمي لهتلر وأتباعه،

(1) Robert Remini, John Quincy Adams (2002).

(2) ناعوم تشومسكي الايديولوجية والاقتصاد ص6.

لإقناع أنفسهم ومن تعاون معهم، بأن أبشع الجرائم العالمية، كانت بالحقيقة فضيلة أخلاقية مشكورة»[1].

لكن الإنسان له روح خاصة مستقلة عن جميع المخلوقات؛ فهو ليس مُفصّلًا على طراز داروين، ولم يوجد من أجل الصراع، إنما وُجد لعبادة الله من إقامة الحق أيًّا كان مَن اتبع الحق سواء كان أبيض أو أسود، أما العقل الإلحادي المادي الهيوماني فقد قام بتفكيك البشر بصرامة بالغة ليس فيها موطنٌ للمشاعر الإنسانيّة، والقِيَم الروحيّة.

إن البحث عن السعادة على الأرض من منظور إلحادي هو شكل من أشكال الغرور الإنساني، وهو يعني القول بمركزية الإنسان، وأن له مكانًا خاصًا في الكون وبداهة لا يمكن القول بوجود غائية إنسانية مستقلة عن الغائية الطبيعية أو المادية.

ولا يأتي الإيمان بمركزية الإنسان وقيمته وسموه إلا بالإيمان بمُطلق أعلى يتجاوز المادة، فالمساواة بين البشر هي مسألة دينية بحتة، فإذا لم يكن الله موجودًا، فالناس بجلاء وبلا أمل غير متساوين، وتأسيسًا على الدين فقط يستطيع الضعفاء المطالبة بالمساواة.

ولذا يقول الدكتور المسيري رحمه الله: إن الإله هو التركيب اللانهائي المفارق لحدود المُعطى النهائي، هو النقطة التي يتطلع إليها الانسان ويحقق التجاوز من خلالها، ومن ثَمَّ بغيابه يتحول العالم إلى مادة طبيعية صماء، خاضعة لقوانين الحركة والصيرورة التي يمكن حصرها و إحاطتها والتحكم فيها، و ينضوي الإنسان تحت نفس النمط؛ إذ بغياب الإله يتحول الإنسان إلى كم مادي يمكن أدلجته وقولبته في إطار مجموعة من المعادلات الرياضية الميته، وفي هذه اللحظة تموت الروح ويتبعها موت الإنسان، فالإيمان بالإنسان وقيمته ومركزيته وسموه هو إيمان يتجاوز حركة المادة وديناميكيتها... فعندما يُقرر الإنسان أن ينسى الإله في هذه اللحظة بالذات يكون قد نسي نفسه ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ [الحشر: 19].

فالإنسان كائن أقدامه مغروسة في الوحل وعيونه شاخصة للنجوم.

كائن ميتافيزيقي يسأل أسئلة نهائية عن معنى الكون.

(1) Richard Weikart.. from Darwin to Hitler.. p.215.

أقصى مُتعة لا تكفي إنسان يعلم أن وُلد ليموت.

بدون وجود إله تفقد كل الكائنات حدودها وحيزها وتنشأ إشكاليات في النظام المعرفي والأخلاقي، وتفقد الأشياء حدودها وهويتها ويَصعُب التمييز بينهما، كما تَختفي التفرقة بين الخير والشر، وتختفي الإرادة والمقدرة على التجاوز وتسود الواحدية والحتمية، وقد اختصر رئيس التشيك فاكيلاف هافل هذه الإشكالية الكبرى فقال عبارته الرائعة: «حينما أعلنت الإنسانية أنها حاكم العالم الأعلى، في هذه اللحظة نفسها، بدأ العالم يفقد بُعده الإنساني». فالفلسفة الهيومانية ضحَّت أول ما ضحَّت بالإنسان.

ومنذ اللحظة التي هبط فيها الإنسان من السماء منذ المقدمة السماوية لا يستطيع الإنسان أن يختار أن يكون حيوانًا بريئًا أو يكون إنسانًا مُخيَّرًا، لم يكن بإمكانه أن يختار بين أن يكون حيوانًا أو إنسانًا، إنما اختياره الوحيد أن يكون إنسانًا أو لا إنسانًا: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: 72].

فالإنسان هو المركز والطبيعة هي الهامش

هذا هو الإنسان وهذه هي طبيعته الحقيقية، وعلى الهيومانية أن تتقبله في هذا الإطار، وأن تستمد قيم معرفية متجاوزة، وأن تتجاهل الرؤية المادية الإلحادية الدارونية كتحليل لظاهرة وجوده، وهذا يعني أنها لن تصبح هيومانية وإنما دينًا جديدًا، وفي هذه اللحظة تفقد أهم سماتها وخصائصها، وينهار المشروع الهيومانى ككل.